السينما العربية في الطريق !

ملاحظات نقدية من أجل خطوة عملية

بقلم نبيل مهايني

هل تمكن معالجة علاقة السينما العربية بالثورة الفدائية والقضية الفلسطينية ، دون فهم « الارضية » و « الاسس » التي تقوم عليها السينما العربية من ناحية والثورة الفدائية من ناحية اخرى ؟ لا اظن. والا وقعنا في براثن حديث عام واسع عاطفي ينتهي بقولنا بانه يجب على السينما العربية ان تتناول موضوع العمل الفدائي وتعرض قضية فلسطين امام الرأي العام العربي والعالمي .. و .. الخ. .. الخ..

ان هذه « النهاية » التي تخيلتها تنتج عن بحث يخشى الوقوع فيه ، انما نسمعها تتردد ، ليس فقط كنهاية ، وانما ، كبرهان وكمقدمة وكنتيجة . سواء فيما يتعلق بالسينما العربية أو ببقية وسائل التبليغ العامة والخاصة الاخرى . وهذا ليس مسيئا في حد ذاته ، فهو ، بالنسبة لهذه الفترة وما قبلها يمنع امالنا ، على الاقل ، من السقوط في هاوية القنوط ، وان كان ـ بتعللنا بهذه الامال ـ يعيقنا عن تطويرها الى عمل واقعي ملموس . فالسكين ذو حدين اذن. لكن وعينا بالقضية ـ بحديها ـ وبكل امتداداتها واطرها ، كفيل بجعلنا نمسك السكين من مقبضها لنستعمل الحدين في الوقت نفسه .

وكما اشرت ، فان ما يصلح أن نقوله عن السينما العربية (ليس فقط في علاقتها مع القضية الفلسطينية ، بل في علاقتها بوضعنا الحضاري بشكل عام) يصلح ايضا بالنسبة لباقي الفنون والاداب ، غير انه في السينما يأخذ طابعا اكثر شمولا واكثر تخصيصية في الوقت نفسه ، وذلك نظرا للطابع الشمولي والتخصيصي للسينما بشكل عام.

ولنرجع الان الى طرفي سؤالنا الاول : فهم الارضية والاسس التي تقوم عليها السينما العربية والثورة الفدائية . وساحاول هنا عرض بعض الجوانب لقضايا السينما العربية (على شكل ملاحظات موزعة) ، تاركا عرض أسس الثورة الفدائية (بشكل مفصل وكامل) لما قد قيل وما سيقال في هذا العدد من « الاداب » . فانا منذ تفكيري بالموضوع ، لم اطمح مطلقا للقيام ببحث شامل متكامل : نظرا لضخامة الموضوع في كلا طرفيه .

فما يهمني هنا اذن ـ بصورة اساسية ـ انما هو القاء الاضواء على جانب مهمل في حياتنا الفكرية ، وهو السينما العربية ، واعود لاخصص ، ليس السينما العربية في كل جوانبها ـ فهذا ليس مجال حديثنا الان كما انه ليس بالحديث القصير ـ بل الجوانب التي تتعلق ، بشكل او باخر ، بقضية ملحة ، الا وهي قضية العمل الفدائي.

***

١ ـ هناك ناحية مهمة ارى انها كانت من الاسباب التي «ابعدت» الفكر العربي عن القضية الفلسطينية في ما قبل حزيران (وهنا تجدر الاشارة الى ان القضية تكمن ايضا في تناوب العلاقة والمسؤولية بين « الابعاد » و « الابتعاد ») وهي ان العرب كانوا ينظرون لاسرائيل نظرة ميتافيزيكية ، وذلك رغم التصاقها الجغرافي بنا (ورغم كون القضية الناشئة عن اغتصابها ارضنا ، تشكل محورا لحياتنا السياسية وغيرها) ، وقد تولدت هذه النظرة كردة فعل وكصدمة على حدة الاقحام التي وجدت معها اسرائيل على ارضنا . وهذه النظرة وان كانت طبيعية وضرورية في الايام الاولى ، قد اصبحت عاملا معيقا عن مجابهة الواقع بصورة عملية شاملة (وليس كردود فعل عاطفية وان كانت احيانا مسلحة) . واقول هذا رغم كل « الفوائد » التي عادت بها هذه النظرة ، والتي كان من اهمها تجميد حالة النقمة ضد هذا الجسم الغريب الذي اقتحم علينا الشرايين . « نفع » : اذا نظرنا ما كان يمكنه ان يكون ، لكن « ضرر » اذا نظرنا لما كان يجب ان يكون .

وقبل ان يساء فهمي ، اعود لاوضح معنى بعض ما اردته بالنظرة الميتافيزيكية : لقد كنا ننظر لاسرائيل على اساس انها كابوس ثقيل حل بنا وانه سيزول ، سيزول ولا يهم كيف ومتى واين . وان تساؤلات واجابات جزئية من هذا النوع كانت تتردد ولكنها كانت جزئية. ونتيجة لهذا فان نظرة واضحة ، او على الاقل ، شبه واضحة للامور كانت مفقودة لدينا . وحتى ساعة الاشتباكات والمواجهات المباشرة ـ المسلحة، او غير المسلحة ـ كانت توحي بنوع من ذاك الفهم الميتافيزيكي للجانب المعادي : لقد كانت نوعا من « مجابهة الاشباح » ـ كما كان يحدث ايام زمان ـ : هناك اقتناع ، هناك مجابهة ، لكن ليس هناك نظرة واضحة عميقة تنطلق من معطيات مستوعبة كليا لنواجهها بصورة كلية حازمة .

ولم يكن لصدمة مثل صدمة حزيران ، الا ان تهز اعماق الضمير العربي .. ان تخضه وتعريه امام نفسه ، وهنا ارى ان من الصعب تحديد نوعية الموقف الذي بدأنا باتخاذه ـ في علاقته مع موقفنا السابق ـ ، الا انه ـ بصورة اكيدة ـ قد بدأ في التغير ، وان كنا لم نصل بعد الى نظرة هندسية (وربما ليست هناك ضرورة في الوصول) ينطلق منها رد فعل واع عزوم .

٢ ـ ولعله من المفيد ان نضيف ، الى ما قيل عن قضية ابتعاد الفكر العربي عن قضية فلسطين (١) ، بأن ذاك الابتعاد كان ابتعادا جوهريا اي ليس ابتعادا شكليا ، فمن المعالجات والتناولات «السطحية» للقضية ، لدينا الاف الامثلة .

أ ـ لكن الفكر العربي لم « يتمكن » ـ حتى الان ـ من الاحاطة ـ عمقا وشمولا ـ بابعاد القضية التاريخية ، وذلك في الماضي والحاضر والمستقبل ، بل اقتصر على معالجة « فكرية » ، او اقتصر على طرح « فكري » للمعطيات التي قدمتها وسائل الاعلام العربية (والتي ما هي الا تعبير عن الفهم الميتافيزيكي من ناحية والردة العاطفية من ناحية اخرى ، اي تعبير عن مجابهة الاشباح ، باختصار) .

ب ـ لكن الاقتصار على ذاك الطرح كان اقتصاراً مكعبا ، اي ان ذاك الطرح ايضا كان مقتصرا على ردة الفعل المضادة لما تطرحه ـ او لما تفعله ـ القوى المعادية ، وهنا لا اريد الاشارة الى انه كان من الضروري اتخاذ موقف الهجوم بدل موقف الدفاع او الهجوم المضاد ـ في احسن الحالات ـ بل اردت الاشارة الى اهمية اتخاذ موقف متكامل تنبع عنه كافة مواقف الهجوم والدفاع (وهنا يحضرني مثال الثورة الجزائرية والفيتنامية) . ومن البديهي ان يكون طابعا من طوابع هذا الاقتصار ـ وسببا من اسبابه ، في الوقت نفسه ـ جزئية النظرة للامور ، جزئية لم يكن بالامكان الخروج منها ، وجزئية ما زلنا نعاني من بعض امورها حتى اليوم .

(١) وقد قرأت نقد الاستاذ عبد الجليل حسن في عدد « الاداب » الاول لهذا العام ، لمقال الاستاذ عطية في العدد الاسبق ، حول المواجهة الادبية لقضية فلسطين . وارى انهما ـ بشكل او باخر ـ متكاملان صحيحان ، ولا يكمن بينهما اي تناقض .

ج ـ لكن هذا لا يعود الى « ذنب » الفكر العربي فقط ، بل (اضافة الى ما تكلمت عنه من علاقة التناوب بين الابعاد والابتعاد) يعود ايضا الى « طبيعة » الفكر العربي في علاقته مع ما يفرض عليه من قبلنا اليوم من وسائل معالجة للامور لا يمكنها ان تتفق مع تلك « الطبيعة » . وللتوضيح اقول : ان تاليف دراما في الغرب انما هو شيء « سهل » و « طبيعي » (ولندع جانبا الفترة المعاصرة) ، لكن تاليف دراما عندنا ، يتنافى ـ كيفيا ـ مع طبيعة نظرتنا للكون والفكر والادب ، فضلا عن كونه يتنافى ـ عمليا ـ مع كل ما صدر عنا من تعبيرات عن تلك النظرة (واورد الفكرة الثانية لعلاقتها مع الاولى ، اي لكونها نتيجة وليس شرطا) . وبهذا اريد التنويه بـ « ضرورة » نزع عقد النقص او ـ على الاقل ـ قلة الثقة بطبيعتنا وتعبيراتها . ولنا في ظهور امثلة تناقض ـ من حيث كونها تعبيرا اصيلا عن قيم مختلفة ـ الطبيعة الغربية وتعبيراتها ـ رغم سيادة قيم حضارتها ـ ، اكبر « مشجع » على « ضرورة » العودة للذات . لكن هذه المرة (١) مسلحين بكل ما اكتسبناه سواء في طريق ابتعادنا ام في طريق عودتنا.

د ـ وبعد تشعب القضية ـ رغم قلة التوضيحات ـ اعود للفكرة الاولى . فمشكلة ابتعاد الفكر العربي عن القضية الفلسطينية (مرة اخرى ، بعيدا عن مسؤولية الطابع الذي ظهرت لنا به تلك القضية ، اي الطابع الميتافيزيكي ، انما هي مسؤولية دائرية تشمل ذاك الطابع وذاك الفكر) ليست هي مشكلة محتوى وحسب ، بل مشكلة صيغة وشكل ايضا (ليس ـ طبعا ـ من حيث ان المحتوى والشكل شيئان مختلفان بل من حيث انهما شيئان متكاملان ، كل منهما يسبب الاخر وينتج عنه) . فنحن ما زلنا نعالج قضايانا « باساليب » الاخرين (والقضية هنا معقدة ، واختصارا اقول ، باننا لا نعالج قضايانا باساليب الاخرين في شكل تلك الاساليب فقط ، بل في مضامينها ايضا . فنحن لا نصور فيلما فقط ـ وهذا شكل اسلوب ، وليس فيه عيب ـ بل نصور فيلما بمحتوى الاسلوب الغربي ، ولذلك فان محتوانا ينتج مشوها ممسوخا داخل محتوى ذلك الاسلوب . ان هذا ليشبه قطف الورود بمنجل السنابل او البرتقال بعصا الزيتون . (وقد اخذت السينما على سبيل المثال فقط) ، ولذلك ـ من ضمن اسباب اخرى ـ فهي معالجة مشوهة من حيث انها تاتينا بنتائج غير متكاملة وغير فعالة . وامضي فاقول باننا نفرض اساليب على محتويات لا تقبل ان تتقولب على تلك الاساليب بدلا من ان نبدع اساليب تتفق مع تلك المحتويات ، من حيث انها تنبع منها وتسببها (٢) . (ويمكن تطبيق هذا على النحت والتصوير والسينما والرواية والمسرحية والبحث والنقد .. الخ.. من جهة ، والشعر والموسيقى و « الفكر » والعمارة .. الخ.. من جهة اخرى ، وآمل توضيح هذا في المستقبل) .

انها مشكلة البحث عن الذات قبل كل شيء ، بحيث يتضح سواء في عملية الابتعاد ام في محاولات العودة . ولعل من الطريف الكشف في هذه العلاقة الجدلية عن مرحلة « تحليلية » (من حيث هي عكس تركيبية) كاملة من تاريخنا الفكري والسياسي .. الخ.. اي الحضاري ـ باختصار ـ (٣) .

هـ ـ ان بالامكان ـ بكل ارتياح ـ الوصول الى ان « الوضوح الفكري » حتى الان ـ سواء بشكل عام او فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ـ انما هو « وضوح ادبي » ـ اذا صح التعبير ـ اكثر من كونه وضوحا فكريا . اي انه وضوح في « شكل » الفكر وليس في مضمونه : انه تكيس وكفى (٤) .

***

وبعد « توضيحات » رأيت انه من الواجب التكلم فيها ، لعلاقتها المباشرة او غير المباشرة بالموضوع ، اعود للسينما . والحديث هنا ليس اقل تقصيرا ، بل ، على العكس ، ونظرا لاشتباكه المتكامل بما سبق ، فهو اكثر تعقيدا ... فالى التعقيدات الاولى تضاف تعقيداته الخاصة. وعلى كل فهدفنا هنا هو القاء بعض الاضواء والبدء ـ بشكل او باخر ـ بمعالجة موضوع هام .

١ ـ لقد كانت علاقة السينما عندنا ـ حتى الان ـ علاقة (رسمية) مع الادب والفكر : علاقة سطحية . فقد اقتصرت ـ حتى عند التقائها بالادب ـ على الاخذ السطحي ، مع الابتلاع دون الهضم ودون التمثل . انها ـ في حالة علاقتها بالادب ـ تنتفخ فيه دون ان يكون هو لها عاملا حيويا مغذيا موحدا معها ، والمسؤولية ـ مرة اخرى ـ مشتركة طبعا ، وتلقى عليهما على التناوب .

واقول هذا كجسر يصل هذا الشق بالشق الذي تكلمت عنه وتناولت فيه الفكر العربي في علاقته مع القضية الفلسطينية والواقع العربي .

٢ ـ لقد قرأت عن اتهامات كثيرة ـ غير مسؤولة في غالبها ـ وجهت الى السينما العربية لانها لم تعالج ولم تتناول قضية فلسطين . وانا هنا ازيد بانها ـ اي السينما العربية ـ لم تتناول ـ في نسبة ظاهرة ـ اية قضية قومية . فحتى ايام ثورة الجزائر او ايام معركة بورسعيد ـ ان لم نتكلم عن حرب الـ ٤٨ ـ لم نر سوى بضعة افلام لم يكن لكل الاحداث التي جرت آنئذ اي اثر فعال في جعلها تغير من طريقة معالجتها للامور وتتفق مع « جدية » الحدث لتقدم عملا متكاملا يمكنه اقناعنا . بل انها لم تحاول ـ اصلا ـ ان تقدم ـ بغض النظر عن النوعية وبغض النظر عن اسباب ذلك ـ افلاما عن الموضوع بنسبة معقولة .

وانا هنا لا اود الاتهام ولا الدفاع ـ فكلاهما موقفان لامسؤولان ـ لكن ، وكما اسلفت ، ابراز القضية في اساسها . فالصحفي او الناقد الذي يتهم او يدافع عن السينما العربية مسؤول مسؤولية السينمائي العربي في ما يتعلق بموضوع الهجوم او الدفاع . اي ان المسؤولية شاملة وتتناول كل فرد كما تتناول المجموع .

٣ ـ وقد يبدو ـ بعد ـ هذا ـ ان من العبث التحدث عن السينما العربية فيما يتعلق بهذا الموضوع ، لكونها مرتبطة كليا بالفكر العربي ولها معه علاقة دائرية في علاقته الدائرية ايضا مع الواقع العربي ذي العلاقة الدائرية ـ مرة ثالثة ـ مع القضية الفلسطينية (وارجو الا

---

(١) اقول هذا وانا على اتم الوعي بما عبر عنه بصدق الدكتور عبد الدايم في عدد يناير من « الاداب » : (.. وامام المحنة التي جرت اليها العقلية المتكلة على ما قد تجود به الاحداث من اعاجيب ، يكادون يشهرون من جديد كرة اخرى روح الامل الضبابي ، او اليأس الجاهل . مرة اخرى نكاد نداوي الداء بالداء : لقد قادنا الى ما عرفنا تعلقنا الواهم بقوى غير منظورة وجنود ...) .

(٢) ويبقى اوضح مثال على هذا كله مثال الشعر العربي ، ففيه نستطيع ان نميز بوضوح العلاقة المتشابكة بين الماضي والحاضر من جهة ، وبيننا ـ مجتمعين ـ مع التقاليد والابداعات الشعرية العالمية ، من جهة اخرى ، ثم بين هذا كله وبين الواقع الحضاري الذي نحياه . كلها علاقات توضح اهمية تكامل ووحدة الشكل والمضمون ، سواء في شكل ومضمون الشكل او في شكل ومضمون المضمون . وفي مقارنتنا الواعية بين شاعر معاصر ـ ويحضرني مثال الدكتور الحاوي ـ وشاعر كلاسيكي اصيل ، مقارنة نسبية ومتناوبة اي تفهم كل واحد منهما كثمرة للحظة حضارية مختلفة ولكن كثمرة ـ ايضا ـ لفطرة واحدة ، نستطيع ان نرى اي تشابه ـ واية عظمة في ذاك التشابه ـ يكمن بينهما . (ان كان هذا لا يعني ان الشعر العربي المعاصر قد بلغ اوج نضجه) .

(٣) ويبقى ما قلته في هاتين الفقرتين الاخيرتين ملاحظة على الماضي ، لكن امام المستقبل ايضا . ان كان لا يمكن اعتباره عقبة لا بد من تجاوزها : فهي روح تكتسب خلال الطريق . وتبقى علاقة الفقرتين بالبحث علاقة غير مباشرة وذات اهمية ثانوية وان كانت اساسية .

(٤) وربما خطر للبعض هنا العودة الى طبيعة الفكر العربي في ماضيه وفي ماهيته ، لكن هذا لا يبرر شيئا فالامور مختلفة . وعلى كل فهذا بحث اخر .

يفهم من كلامي هذا الاشارة الى انعدام مخرج للامر ، بل العكس بصورة تامة) ، اقول انه قد يبدو من العبث ذلك ان كنت لا ارى هذا ، من حيث ان القضية في السينما تتضاعف ، فيما يتعلق بالميتافيزيكية مثلا ، نرى بانه اذا ما كان من الصعب على الادب والنقد ـ بشكل عام، وفيما سبق ـ تناول القضية بوضوح ، فانه من المستحيل على السينما ـ وهي فن الصورة ـ ان تتناول((افكارا وتصورات ميتافيزيكية)) لتحولها الى صور . انها بحاجة « لوقائع » (٥) تقدمها . اذا كنت قد شرحت سابقا بعض ما اردت قوله بالميتافيزيكية ، فارى انه علي شرح ما اريد قوله « بالوقائع » . ذلك انه من السهل القول بأن السينما تستطيع معالجة قضايا ميتافيزيكية او واقعية ، باسلوب تجريدي او واقعي على التوالي وعلى التناوب . لكن المسألة هنا مختلفة كما انها اعمق واوسع مجالا . وفي تعبيري عن املي في ان لا اكون قد وقعت في براثن استعمالي لكلمة الميتافيزيكية ، اعود « للوقائع » ، والتي اردت قرنها بتخيلي للحاجة الى حوادث واقعية او ذات امكانيات واقعية نستطيع ان نستخلص منها معنى عمليا ملموسا . وهذا ما افتقدته السينما العربية في علاقتها بالقضية الفلسطينية (بل بالواقع العربي بصورة عامة) اذ انها كانت تأخذ (وسأتكلم فيما بعد عن نوعية هذا الاخذ) حوادث ـ واقعية ، نعم ـ من الواقع تنقلها الى السينما لكن بشكل لا يمكن معه ان نستخلص منها بصورة مباشرة او غير مباشرة (في الفترة نفسها) اي معنى محسوس . ويبدو هذا طبيعيا عندما نعلم بانه لم يكن في نيتها ـ ولا حتى في استطاعتها ـ حتى الوصول الى معنى مماثل ، فهدفها الاساسي هو التاثير المباشر على المشاهد : وفي موضوعنا هذا ، اي القضية القومية ، كان هدفنا اثارة الحماس وحسب .

اما دور « ميتافيزيكية » الامور فواضح : فلو كانت القضية « جلية » « محسوسة » (٦) لفرقت منها السينما او غيرها ، وهي على يقين من نتائج جلية محسوسة . لكن ـ ومن جديد ـ فالمسؤولية دائرية متكاملة . وسأحاول هنا ـ فيما بعد ـ توضيح معان اخرى لما سميته بالميتافيزيكية .

ومن ناحية اخرى ، فاني اجد نفسي مضطرا للاشارة الى موضوع واسع وعلم اخر يدخل بصورة مباشرة في القضية ، وهو ان المعالجة « الواقعية » لواقع غير مفهوم بكل ابعاده انما هي معالجة جزئية ناقصة ، والمهم هو محاولة فهم الواقع بكل ابعاده وملامحه : اي اكتشافه ومن ثم التعبير عنه بأية طريقة كانت ، ان كنت لا اظن انه بالامكان البدء بالتعبير الواقعي ، رغم انه ـ وعلى ما يبدو ـ التعبير « الافضل » والتفضيل في ـ هذا ـ فيما يتعلق بالسينما ـ امر طويل ، اتركه لمجال اخر .

٤ ـ ولا شك ان هناك امورا عملية كثيرة قيدت وحددت من مسيرة السينما العربية في علاقتها مع قضايانا . فاذا ما تركنا جانبا قضايا الطاقة والاستطاعة ، لبرزت امامنا بشكل سافر فاضح الحاجات « الانتهازية » لعلاقة السينما مع الجمهور . فقضية « الذوق » او المتطلبات ذات اثر كبير في الامر (وان كان هذا لا يخرج عن معضلة المقدرة والطاقة ، اذ ان العطاء السينمائي ليس سلبيا انما هو ايجابي ايضا اي ذا فاعلية في توجيه ـ او على الاقل ـ تطوير الذوق والمتطلبات . وهنا يرتبط الامر ـ في احد اطرافه ـ بالقضايا الجمالية في الذوق وفي شكل العمل الفني) . ومن هنا كانت الغاية الاساسية في الافلام التي تتناول موضوعا قوميا : الحماسة ، اثارة الحماسة فقط (واترك الان مظاهر وغايات الافلام الاخرى لمجال اخر) . وللاسف فهذا لا يقتصر على السينما وحسب . وقد قلت « اثارة » تجاوزا ، لان الحماسة هي متطلب وحاجة تشبعهما السينما ولا تخلقهما (ومن جديد تنطرح قضية التاثير والتقييد) . لكن ما يهمني الاشارة اليه هنا هو ان الحماسة حاجة عند كافة الشعوب ، خاصة في فترة معينة من تاريخها . لكن قضية اشباع هذه الحاجة هي ما تهمني معالجته هنا . فالمهم ليس الاشباع المؤقت ، اي ليس التخدير ـ في شكل ما ـ بل الاشباع الحقيقي ، الاشباع الذي يساهم ـ عندما يطرح ـ في تطوير هذه الحاجة « الفطرية » تطويرا ايجابيا (٧) . لكن ـ ومن جديد ـ لا يمكن للسينما العربية ، ان تصل الى هذا الموقف ما لم تنبع عن وضوح فكري كامل تتجاوز فيه العاطفة الحماسة لتصل الى مرحلة « نضج » في الفكرة العاطفية ، اي ـ باختصار ـ الى مرحلة الوحي . وعندها ستكون « الحماسة » تعبيرا عن موقف يمكنه ان يخلق عواطف مماثلة وحماسة صلدة مثابرة ، وليس تعبيرا عن جموح وعن « عاطفة » يمكنها ان تتلاشى في اية لحظة .

ان ثورة مثل ثورة الجزائر لم تهم السينما العربية في شيء الا في « قطف » الطابع الحماسي للقضية (ولا بد ان اكرر مرة اخرى ، بان للامر طابعه التاريخي ، وانه لم يكن بالامكان غير ما كان ، بالنسبة للماضي طبعا) ، فقضية نشوء الثورة وانتشارها وتوسعها وفرض نفسها وانتصارها ، كلها مراحل غير مستوعبة ، لا جزئيا ولا كليا ، الا من حيث هي مظاهر : هناك ثورة . هناك ثورة قوية . هناك ثورة انتصرت ـ هناك مستعمر غادر ، هناك مستعمر يضعف ، يخور . هناك مستعمر منهزم (كل ذلك عبر تقديم روائي شكلي وليس فكري) . اما محاولة تقديم شيء ما عن كل مرحلة او عنها مجتمعة ، فهذا ما لا يهم في اية حال . المهم الحماسة ، اذا كان بالامكان تقديمها بشكل بسيط.. فلماذا التعقيد ؟

وكذلك الامر في قضية العدوان الثلاثي ١٩٥٦ .. اني اذكر افلام مثل « بورسعيد » و « الله اكبر » ، لقد كان جانب المعالجة دائما ينبع

---

(٥) وقد كنت اضع بعض الكلمات بين هلالين كي لا يساء فهمي مسبقا ـ نظرا لتشابك الامور وصعوبة البحث واتساع معاني الكلمات .

(٦) وذلك من ناحية ما يمكن لهذين التعبيرين ان يكونا ضد تعبير الميتافيزيكية لا من حيث كونهما يشيران الى الوضوح والسهولة .

(٧) وتجدر الاشارة هنا الى اساليب الدعاية (كنشر لدعوة) المختلفة في النظم السياسية والاجتماعية بل وحتى التجارية . وذلك من حيث ضرورة الوصول ، في كل منها الى هدفين في التاثير المباشر وغير المباشر . والثاني هو الاهم لانه ـ في اللحظة المناسبة ـ سيولد ردة الفعل المتطلبة والدائمة . ويبدو ان بحثي هذا ـ للاسف ـ مقدر له ان يبقى على شكل ملاحظات من هنا وهناك . والا فان الحاجةواضحة لتطوير كل فكرة ومعالجتها بصورة واسعة ، على حدة . على كل آمل ان اكون قد وفقت ـ على الاقل ـ بطرح القضية .

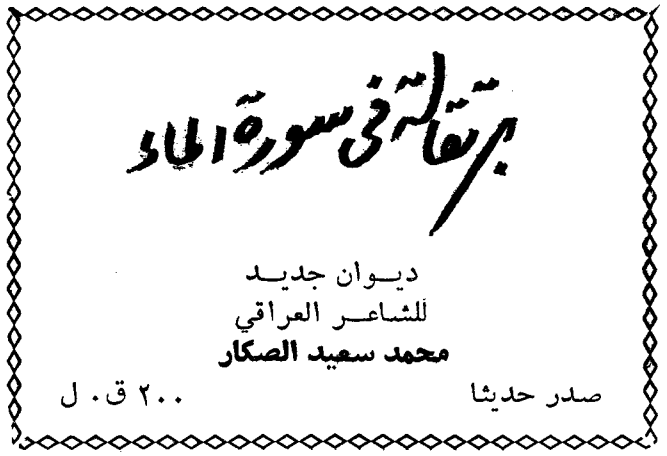

من « قطف » مظهر من مظاهر القضية ثم تطويره من نفس وجهة ذاك المظهر (وهذا من خواص السينما العربية) ، اي « قطف » المظهر العاطفي وتطويره بصورة حماسية . واكرر بان للامر فوائده العملية ، لكن له مساوئه العملية والفكرية والفنية : الحضارية .

والجدير بالذكر ان تطوير ذاك المظهر بصورة حماسية كان ذا طابع « روائي » ، واقصد بالروائي هنا عكس « السينمائي » وعكس «الواقعي» (ولا اقصد طبعا معنى الرواية التقليدي) وذلك بشكل يخدم فقط في التطوير ، اي وبكلمة اسوأ بـ « الحشو » و « النفخ » وفي تغطية الفراغ : في « خلق » شيء ما من اجل تقديم شيء ما (وارجو ان يؤخذ كل هذا على محمله الموضوعي ، كما اردته) .

لكن ان نحن نظرنا الى فيلم مثل فيلم «معركة مدينة الجزائر»(٨) لجوليو بونتي كورفو والذي حاز على جائزة اسد سان مرقس الذهبي في مهرجان البندقية لعام ١٩٦٦ ، لاتضح لنا كيف تمكن معالجة قضية ثورة ما بصورة « حماسية » فعلية ولكن بطريقة واعية ايضا . لقد استطاع هذا الفيلم تحريك العواطف المتناقضة في بعض انحاء أوروبا بعد خمود قضية الثورة الجزائرية كعداوة عربية ـ فرنسية . واستطاع تحريك الرأي العام ـ من جديد ـ الى جانب اولئك الثوار الابرياء الذين بدأوا يتحركون لتحرير بلادهم ، رغم عرضه الحوادث بكل موضوعيتها . ان الارضية التحليلية التي قام عليها الفيلم والتي عرضت فيها مراحل تفتح الثورة وانتشار العقلية الثورية (ولنتذكر المناظر التي تلت بيان منع المخدرات والبغاء) وتحريك الطاقات الجماهيرية ، قدمت عرضا علميا عنيفا مخر احشاء المشاهدين بقوته وصلادة حماسيته .

ان المهم هو الامساك بالخيوط الاولى التي تتحرك منها الحوادث ، وليس عرض الحوادث بمظاهرها الخارجية دون الالتفات للارضية التي تجري عليها . انه من السهل جدا ان نقول وان نعلن وان نصرخ باننا نكافح من اجل الحرية ، ومن السهل جدا ان ننقل هذا « القول » الى مستوى عمل « فني » ، لكنه من الصعب جدا تقديم عمل فني تعود العواطف الاساسية فيه الى جذورها ولا تبدو هي في حد ذاتها الا كمظهر (تماما كما هي في الواقع) يستند الى فهم عميق لها ولعواملها وعلاقاتها . فالكفاح من اجل الحرية لا يقوم به عشرة من الملائكة شفافي الاجنحة والقلوب ضد عشرة او مئة من الشياطين المردة سود الاذناب (١٠) . انه كفاح يقوم على اسس واقعية يجب عرضها بكل جدليتها وتناقضاتها (٩) . وعلى كل فكل هذا يتغير وفق الغاية التي يبنى من اجلها الفيلم . فاذا كانت غايتنا الحصول على تصفيق المشاهدين (وكفانا الله شر الصفير) وبعدها لن يهمنا من الامر شيئا .. فكل شيء سيكون سهلا . اما اذا كانت الغاية بناء حجر هوى في الطريق.. فالى العمل .

نبيل مهايني

---

(٨) الفيلم صور في الجزائر من قبل ممثلين اوليين وثانويين جزائريين . وهو من انتاج ايطالي ـ جزائري مشترك . وقد ساهم المخرج العربي علي يحيى في الاخراج . وفضلا عن كونه وثيقة تاريخية وفنية هامة ، فقد كان الفيلم ، خطوة جيدة انفتحت معها كادرات السينما الجزائرية على الرياح العالمية .

(٩) وكم اود هنا تقديم شرح امثلة من السينما الروسية الصامتة ـ كمثال واضح ـ او حتى لفيلم معركة مدينة الجزائر نفسه . لكن المجال يضيق علي ، وساستطيع ذلك ان شاء الله في المستقبل .

(١٠) هي طبعا كذلك في الواقع وفي الفن ، ولكن ـ كما قلت ـ كمظهر فقط ، مظهر يستند في الفن الى « ما ينقل » من الواقع من « دعائم » لتلك المظاهر .

مذكرات مالكولم x

زعيم الزنوج المسلمين في اميركا

في نيسان ١٩٦٥ ، اغتيل مالكولم x زعيم الزنوج المسلمين في اميركا . وقد كان وسيبقى واحدا من اشجع زعماء الحركة الزنجية في اميركا واكثرهم اصالة وابعدهم شهرة . وقبل ان يقتل بعدة اشهر (وكان يتوقع ذلك) املى على الصحفي «الكس هالاي» سيرته الذاتية التي هي اعجب سيرة لزعيم !

ذلك ان مالكولم x لا يخفي في سيرته شيئا من اسرار حياته ، بل يتحدث بكل صدق عن شبابه في الكوخ الذي كان يعيش فيه في حي « هارلم » حيث كان يتعاطى المخدرات والخمر ويمارس السرقة والسلب ويعيش عيشة الانحلال . وفي السجن الذي قادته اليه اعماله اللصوصية ، اكتشف فجاة السقوط الذي يعيش فيه ويعيش فيه كذلك كل افراد شعبه الزنوج . وهناك اعتنق الاسلام وانضم الى « امة الاسلام » ليكرس حياته كلها فيما بعد لمقاومة «الشيطان الابيض» المسؤول عن سقوط الزنوج في اميركا .

ويتحدث مالكولم x في مذكراته الرائعة عن حياة السود ومشاكلهم والتمييز العنصري الذي يمارسه عليهم البيض من الاميركيين ، وعن تمردهم وثورتهم التي نشاهد اليوم بعض مظاهرها في عدد من مدن اميركا الكبرى ، ويحلل في نفاذ وعمق الظروف السياسية والنفسية التي يعيش فيها الزنوج الاميركيون ، وعن ايمانه بالاسلام كدين يحارب التمييز ويدعو الى الاخوة الحقيقية بين الشعوب والامم .

وقد وصف روبرت كندي هذا الزعيم بانه الوحيد بين زعماء الزنوج الاميركيين الذي يملك « مغنطيسية » عجيبة !

مذكرات رائعة مؤثرة عن حياة مضطربة عجيبة لرجل عبقري يعتبر شاهدا على فترة خطيرة من تاريخ الزنوج الاميركيين الذين يكافحون من اجل تحريرهم، ويقفون بصلابة في وجه سياسة اميركا المخادعة .

صدر حديثا ـ الثمن ٥٥٠ ق.ل